عصر الجاحظ

- ٢ -

« الزندقة »

هذا شيءٌ من حرية الفكر التي أشار اليها الجاحظ في عصره الا انها حرية لم يتراخ أمدُها وقد خالطتها الشدة في خاتمة الامر فكانت المناظرات في مجالس الخلفاء لا تخلو من ضرب المخالفين لآراء الجمهور وتعذيبهم وقتلهم الا انه كيف كان الامر فقد اتى على علماء المسلمين حين من الدهر كانوا فيه يعاملون بمعتقداتهم دون ان يخافوا صولة السلطان وقد كان غير المسلمين من المجوس وأضرابهم يعارضون هؤلاء العلماء في امور متعلقها الدينُ من غير ان يتجهمهم احد بما يكرهون وكان لاهل الكتاب من نصاري ويهود حرمة تختلف على اختلافهم في جلالة القدر قبل الاسلام وبعده فكانت النصارى أحبَّ الى المسلمين من غيرهم وأقربَ مودةً وقد فصّل لنا الجاحظ اسباب هذه المحبة وقرب هذه المودة فقال[1]

« جاء الاسلام وملوك العرب رجلان : غساني ولخمي وهما نصرانيان وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدي الاتاوة اليهما فكان تعظيم قلوبهم لهما راجع الى تعظيم دينهما وكانت تهامة وان كانت لقاحاً لاتدين ولاتؤدي الاتاوة ولا تدين للملوك الا انها كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظّم الناس وتصغير ماصغروا ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب معروفة عند اهل النسب ولولا ذلك لدللتُ عليها بالاشعار المعروفة والأخبار الصحيحة وقد كانت تتجر الى الشام وتنفذ رجالها الى ملوك الروم ولها رحلة في الشتاء

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٦٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والصيف في تجارة مرة الى اليمن ومرة قبل الشام ومصيفها بالطائف فكانوا أصحاب نعمة وذلك مشهور مذكور في القرآن وعند اهل المعرفة وقد كانت تهاجر الى الحبشة وتأتي باب النجاشي وافدة فيجيبهم بالجزيل ويعرف لهم الاقدار ولم يكن يعرف ذلك كسرى ولا تأنس بهم وقيصر والنجاشي نصرانيان فكان ذلك ايضاً للنصارى دون اليهود والآخر من الناس تبع للاول في تعظيم من عظّم وتصغير من صغّر .

وأخرى وهي ان العرب كانت النصرانية فيها فاشية وعليها غالبة الا مضر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ولم تفش فيها النصرانية الا من كان قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد ، فانهم كانوا نصارى وهم مغمورون مع نبذ يسير في بعض القبائل ولم تعرف مضر الا دين العرب ثم الاسلام وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها ، على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطي في قبائل كثيرة وأحياء معروفة ثم ظهرت ربيعة فغلبت على تغلب وعبدالقيس واحياء بكر ثم في آل ذي الجدين خاصة وجاء الاسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة الا ما كان من ناس من اليمانية ونبذ يسير من جميع ايادوربيعة ومعظم اليهودية انما كان بيثرب وحمير وتيماء ووادي القرى في ولد هارون دون العرب فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملكُ الذي كان فيهم والقرابة التي كانت لهم » .

هذه طائفة من الاسباب التي من أجلها كانت النصرانية ارفع منزلة من اليهودية في عيون المسلمين وأظهر هذه الاسباب الملك الذي نشأ للنصارى قبل الاسلام اما اليهود فلم تلن قلوب المسلمين لهم لينها للنصارى ولنرجع الى الجاحظ في معرفة العلل التي غلظت قلوب المسلمين على اليهود . قال ابوعثمان[1] .

« ان اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الاقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وانما يعادي الانسان من يعرف ويميل على من يرى ويناقض من يشاكل ويبدو له عيوب من يخالط وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام في سائر الناس وسائر العرب أطول وعداوتهم أشد فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً وقد كانت الانصار متقدمة الجوار مشاركة في الدار

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٥٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حسدتهم اليهود على نعمة الدين والاجتماع بعد الافتراق والتواصل بعد التقاطع وشبهوا على العوام واستمالوا الضعفة وملؤا الاعداء والحسدة ثم جاوزوا الطعن وادخال الشبهة الى المناجزة والمنابذة بالعداوة فجمعوا كيدهم وبذلوا أنفسهم واموالهم في قتالهم وإخراجهم من ديارهم . وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر وترادف لذلك الغيظ وتضاعف البغض وتمكن الحقد . وكانت النصارى لبعد دارهم من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره لا يتكلفون طعناً ولا يثيرون كيداً ولا يجمعون على حرب فكان هذا اول أسباب ما غلّظ القلوب على اليهود وليّنها على النصارى . ثم كان من امر المهاجرين الى الحبشة واعتمادهم على تلك الجهة ما حبّبهم الى عوام المسلمين وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود ومن شأن الناس حب من اصطنع اليهم خيراً او جرى على يديه » .

هذا ما كان من مقدار نظر المسلمين الى اهل الكتاب ولما كان المسلمون على النصارى أعطف واليهم أميل كان للنصارى شيء من الميزة ظهرت في مراكبهم وملابسهم وصناعاتهم قال الجاحظ في كلامه عليهم[1] :

« اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة وتحدقوا المدينة ولبسوا الملحم والمطبقة واتخذوا الشاكرية وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي واكتنوا بذلك أجمع ... فرغب اليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير وعقدها آخرون دون ثيابهم وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها وسبّوا من سبهم وضربوا من ضربهم ومالهم لا يفعلون ذلك واكثر منه وقضاتنا وعامتهم يرون ان دم الجاثليق والمطران والاسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة » .

وقد كان منهم كتّاب السلاطين وفراشو الملوك واطباء الاشراف ولم يكن اليهودي الا صباغاً او دباغاً او حجاماً او قصاباً او شعاباً[2] .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٧٠) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٦٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبلغ من استصغار شأن اليهود ان الصبيان كانوا يصيحون بالفهد اذا رأوه : يا يهودي وكانت العامة تزعم ان الفأرة كانت يهودية سحّارة والارضة يهودية ايضًا عندهم والضب يهودي حتى قال بعض القصاص لرجل اكل ضبًا : اعلم انك اكلت شيخًا من بني اسرائيل » .

وبلغ من إجلالهم للنصرانية انهم كانوا لا يضيفون اليها شيئًا من السباع والحشرات [1]

* * *

الى اي شيء ادّت حرية الفكر التي لمّح اليها الجاحظ .

من جملة عواقب هذه الحرية استفاضة الزندقة في جمهور المسلمين وكثرة الفرق وكما نبّهنا الجاحظ على إمكان القول في عصره فكذلك نبهنا على نتائج إمكان هذا القول فلئن حمد دهره في مبدإ الامر فمالبث ان ذمه حتى قال [2] :

« وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانبًا وأعرضوا عنه صفحًا فليس الا : لا أو نعم الاّ ان قولهم : لا موصول منهم بالغضب وقولهم : نعم موصول منهم بالرضا وقد عزل الحق جانبًا ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن قال عمرو بن الحارث : كنا نبغض من الرجال ذا الرياء والنفخ ونحن اليوم نتمناها »

واذا أردنا ان نعرف كيف استفاضت الزندقة في عصر الجاحظ فلنرجع الى الجاحظ نفسه فقد كشف لنا ناحيةً من استفاضتها فقال في اثناء كلامه على فريق من أهل الكتاب [3] :

« يتبعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالاسناد من روايتنا والمتشابه من آي كتابنا ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين وحتى مع ذلك ربما تبرؤا الى علمائنا واهل الأقدار منا ويشغبون على القوي ويلبسون على الضعيف ومن البلاء ان كل انسان من المسلمين يرى انه متكلم وانه ليس

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٦٢) .

(٢) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٣) .

(٣) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٧٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

احد أحقّ بحاجة الملحدين من احد وبعد فلو لا متكلمو النصارى واطباؤهم ومنجموهم ماصار الى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وأخداننا شيء من كتب المانية والديصانية والمرقوبية والفلانية ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ولكانت تلك الكتب مستورة عند اهلها ومحلاّة في ايدي ورثتها فكل سخنة عين رأيناها في احداثنا واغبيائنا فمن قولهم كان اولها » .

والظاهر ان تزندق القوم بالعراق كان فاشيًا بين المسلمين غير العرب فقد روى الأصمعي عن الخليل بن احمد عن ابي عمرو بن العلاء انه قال : اكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية [1] .

الا ان السلطان لم يغفل عن معاقبة الزنادقة فكان منهم من يهرب من وجه السلطان ومنهم من يقتل ومنهم من يستر زندقته حتى ينجو من الشر فقد قال الجاحظ [2] :

« والزنادقة لم تكن قط أمة ولا كان لها ملك ومملكة ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

* * *

وقد شاعت الزندقة في طبقات الادباء وظهرت على اشعارهم آثارها .

فمن الذين اتهموا بالزندقة حماد الراوية فقد عرّض به حماد بن الزبرقان قال [3] :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه و يقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد

ومنهم ناس ذكرهم حماد عجرد في هجائه لبشار فقال [4] :

---

(١) طبقات الادباء للانباري (ص ٣١) .
(٢) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٣٨) .
(٣) » » » » ١٤٢
(٤) » » » » ١٤٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لو كنت زنديقاً عمار حبوتني أو كنت اعبد غير رب محمد
او كنت عندك اوتراك عرفتني كالنضر او الفيت كابن المقعد
او كابن حماد ربيئة دينكم جبل وما جبل القوسي بمرشد
لكنني وحدت ربي مخلصاً فحفوتني بغضاً لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت والارض خالقها لها لم يهمد
والنعم مثل الزرع ان حصاده منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

قال الجاحظ : وحماد هذا أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذى هجاه بهذه الابيات واما قوله : وحبوت من زعم السماء تكونت ... البيت فليس يقول احد ان الفلك بما فيه من التدبير تكوّن بنفسه ومن نفسه .

ومنهم يونس بن فروة وفي يونس يقول حماد عجرد[1] :

ماالناس عندك غير نفسك وحدها والخلق عندك ما خلاك بهائم
ان الذي أصبحت مفتوناً به سيزول عنك وانف جارك راغم
فتعض من ندم يديك على الذي فرطت فيه كما يعض النادم
فلقد رضيت بعصبة آخيتهم اوخاهم لك بالمعرة لازم
فعلمت حين جعلتهم لك دخلة اني لعرضك في اخائك ظالم

وكان حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان و بونس بن هارون وعلي ابن الخليل و يزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم ومطيع ووالبة بن الحباب وابان بن عبد الحميد وعمارة بن حربية يتواصلون وكأنهم نفس واحدة وكان بشار ينكر عليهم و يونس الذي زعم حماد عجرد انه قد غرّ نفسه بهؤلاء كان أشهر بهذا الرأي منهم وقد كان كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب وعيوب الاسلام بزعمه[2] .

وذكر ابو نواس أبان بن عبدالحميد اللاحقي وبعض هؤلاء ذكر انسان يرى لهم قدراً وخطراً في هجائه لأبان وهو قوله :

---

(١) الحيوان (الجزء السابع ص ١٤٣) .
(٢) » » » » ١٤٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جالست يوماً ابانا لا درّ درّ ابان
ونحن حضر رواق الامير بالنهروان
حتى اذا ما صلاة الاولى دنت لأوان
فقام ثم بهـا ذو فصاحة وبيان
فكل ما قال قلنا الى انقضاء الاذان
فقال: كيف شهدتم بذا بغير عيان
لا اشهد الدهر حتى تعاين العينان
فقلت: سبحان ربي فقال سبحان ماني
فقلت عيسى رسول فقال: من شيطان
فقلت: موسى كليم المهيمن المنان
فقال: ربك ذو مقلة اذاً ولسان
فنفسه خلقته أم من، فقمت مكاني
عن كافر يتمارى بالكفر بالرحمن
يريد ان يتسوّى بالعصبة المجان
بعجرد وعباد والوالبي الهجان
وقاسم ومطيع وريحانة الندمان

وتعجبي من ابي نواس وقد كان جالس المتكلمين أشدّ من تعجبي من حمّاد حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولاً لا يقوله احد وهذه قرة عين المهجو والذي يقول:

سبحان ماني يعظم امر عيسى تعظيماً شديداً فكيف يقول انه من قبل شيطان واما قوله: فنفسه خلقته أم من فان هذه المسألة نجدها ظاهرة على السن العوام والمتكلمون لا يحكون هذا عن احد. وفي قوله: والوالبي الهجان دليل على انه من شكلهم والعجب انه يقول في ابان انه من يتشبه بعجرد ومطيع ووالبة بن الحباب وعلي بن الخليل واصبغ وابان فوق ملء الارض من هؤلاء ولقد كان ابان وهو سكران اصح عقلاً من هؤلاء وهم صحاة فاما اعتقاده فلا أدري ما أقول فيه لان الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظير ولكن للناس تأس وعادات وتقليد للآباء والكبراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويعملون على الهوى وعلى مايسبق الى القلوب و يستثقلون التحصيل ويهملون النظر حتى يصير في حال متى عاودوه وأرادوه ونظروا بابصار كليلة وأذهان مدخولة مع سوء عادة ، والنفس لاتجيب وهي مستكرهة وكان يقال : الطفل اذا كره عمي ومتى عمي الطباع جسا وغلظ وأهمل حتى يألف الجهل ولم يكد يفهم ما عليه وله فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف والسابق الى القلب .

ومن الذين اتهموا بالزندقة ابو نواس فقد كان يتعرض للقتل بجهده وقد كانوا يعجبون من قوله :

كيف لا يدينك من امل من رسول الله من نفره

فلما قال :

فاحبب قريشاً لحب أحمدها واشكر لها الجزل من مواهبها

جاء بشيء غطى على الاول —

وانكروا عليه قوله :

لو اكثر التسبيح ما نجّاه

فلما قال :

يا احمد المرتجى في كل نائبة قم سيدي نعص جبّار السموات

غطّى هذا على الاولى وهذا البيت مع كفره مقيت جداً وكان يكثر في هذا الباب[1] واكثر من قتل في الزندقة من كان ينتحل الاسلام ويظهره هم الذين آباؤهم وامهاتهم نصارى[2] .

وقد صحب هذه الزندقة وهذا الكفر شتات المسلمين وكثرة الفرق فبعد ان كانوا يجمعهم نظام واحد ودين واحد لا يعرفون غير الكتاب والسنة اختلفت كلمتهم حتى أصبح الانسان يحار في كثرة الفرق ما بين حدثي ومعتزلي وشيعي وزيدي ورافضي وبكرية وجبرية وفضلية وشمرية ومرجئة وعثماني وخارجي واباضية ونابتة وحشوية وغالية

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص١٤٣) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص١٦٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وسميطية وكميلية وسبلية وديصانية وجهمية وصوفية وناحبة وصفرية والازارقة فضلاً عن المارقة والمانية والدهرية واشباهها ·

ولا بأس بان اذكر لكم نبذاً من معتقدات الزنادقة مما أورده الجاحظ في كتبه ·

فالمانية[1] تزعم ان العالم بما فيه من عشرة أجناس ، خمسة منها خير ونور وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسة وحارّة ، وان الانسان مركب من جميعها على قدر مايكون في كل انسان من رجحان أجناس الخير على أجناس الشر او رجحان الشر على أجناس الخير وان الانسان وان كان ذا حواس خمسة فان في كل حاسة فنوناً من ضده من الاجناس الخمسة فمتى نظر الانسان نظرةَ رحمةٍ فتلك النظرة من النور ومن الخير ومتى نظر نظرة وعيد فتلك النظرة من الظلمة وكذلك جميع الحواس وان حاسة السمع جنس على حدة وان الذي في حاسة البصر من الخير والنور لا يعين الذي في حاسة السمع من الخير ولكنه لايضارّه ولا يفاسده ولا يمنعه فهو لا يعينه لمكان الخلاف والجنس ولا يعين عليه لانه ليس ضداً وان أجناس الشر خلاف لاجناس الشر ضد لاجناس الخير وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ولا يضاد وان التعاون والتأذي لايقع بين مختلفها ولا بين متضادّها وانما يقع بين متفقها ·

والدهري[2] ليس يرى ان في الارض ديناً او نحلة او شريعة او ملة ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ولا للحرام نهاية ولا يعرفه ولا يتوقع العقاب على الإساءة ولا يتوخى الثواب على الاحسان وانما الصواب عنده والحق في حكمه انه والبهيمية سيان وانه والسبع سيان ليس القبيح عنده الا ماخالف هواه وان مدار الامر على الاخفاق والدرك وعلى اللذة والألم وانما الصواب فيما نال من المنفعة وان قتل الف انسان صالح لنالة الدرهم الرديء ·

وقال في موطن آخر[3] :

---

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٤١) ·

(٢) » » » » ٦

(٣) » » » » ٣٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« فان كان الدهري يريد من اصحاب العبادات والرسل ما يريد من الدهري الصرف الذي لا يقر الا بما أوجده العيان وما يجري مجرى العيان فقد ظلم وقد علم الدهري ان لنا رباً يخترع الاجسام اختراعاً وهو حي لا بحياة وعالم لا بعلم وانه شيء لا ينقسم وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق وان الانبياء تحيي الموتى وهكذا كله عند الدهري مستنكر » .

واما الديصانية فقد زعمت - على ما قال ابو اسحق النظّام — ان اصل العالم انما هو من ضياء وظلام وان الحر والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة انما هي نتائج على قدر امتزاجها [1] .

دمشق : ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٣١

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ١٧) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net